نحـو فن مغربـي مغايـر

الغـالـي المـرابـط

« لا فائـدة للعمـل الفني الا في النطاق الـذى يـرعـش فـيـه ارتكـاسـات المستقبـل »
اندريه بروتـون

يشكل المعرض الجماعي الذى نظم سنة 1918 ببهو فندق الاكسلسيور ، بداية تاريخ رسم اللوحة في المغرب . اذ ءرسم طموح لكنه عقيم ينحصر فـي الوفاء التسجيلي والوثائقي ، ويقتصر على الشعر السهل ، ويتميز ككل رسم استعمارى برفضه للقلق . ولانه رسم يتسم بالطبيعية الاكاديمية جدا ـ تلك الاكاديمية التي تشوبها ، وبشكل مبهم ـ انطباعية جديدة ـ فهو لا يتقبـل اجهاد العقل في فك ألغاز التعبير : يفضل الحكاية فيبقى على هـامش كـل تساؤلات الفن الحديث ، وهكذا يرفض كل مفهوم جديد للرسم يؤكد مدلوله غير التصويرى (المعنى الفلسفي والاجتماعي) .

« كان الناس يذهبون الى المغرب ليرسموا فيه ، اما الآن فنحن نذهب اليه لملاقاة ومشاهدة أعمال الفنانين المغاربة الشبان » . انهم مجموعة كبيرة وعددهم في تزايد مستمر ، مما يدفع الى الاعتقاد بأن عملية زرع الرسم قد تمت دون أى رفض ، ويبدو في الواقع أن مجتمعا كمجتمعنا كان هدفا للهجوم ، أو كان مجبرا على الاحتكاك ، يبدى ضد عنصر ثانوى مقاومة أقل من تلك التـي يواجه بها عنصرا ذا اهمية رئيسية = ولأن العنصر الثانوى أقـل اخـلالا وتشويشا . فهو لا يثير حذر المجتمع المتعرض للهجوم . وهذا ينطبق علـى الابداع التشكيلي ، تلك الظاهرة الثقافية العارضة التي تفسرها تحـولات المجتمع المغربي الذى زلزلت الصدمة الغربية عاداته الموغلة في القدم .

لا يعبر الرسم في المغرب عن مجرد حاجة حيوية ولكنه يعبر عن ضرورة ملحة وحارقة . أما الآن فان هذا الشكل يتخبط في وضع دقيق وخطير ومتناقض. من اللائق أن يوضع في موازاة مع وضع كل مبدع كاتبا كان أو معماريا او سينمائيا ، وزيادة على ذلك فان الاشكالية التي تقلق بال بعض الفنانيـن ، تتجلى ـ من حيث تساؤلاتها الاكثر اقلاقا وايلاما ـ في غالبية ثقافات العالـم

الثالث . ان الفجوة و « الجرح » المفروضين بفعل المرحلة الاستعمارية يشكلان قطيعة خطيرة بين ما قبل الاستعمار وما بعده .

الرسم في المغرب مكسب حقيقي ، ولكن ، ماذا نرسم ؟ ولمن ؟ ولماذا ؟ وننسى أن النظرية تصبح نتيجة ضرورية للنشاط التشكيلي . كيف نجرؤ على التحدث عن الرسم ، في حين أن هذه الكلمة التي زالت قدسيتها وأصبحت موضع تساؤل واتهام ـ قد فقدت كل معنى . ألا يصرخ الجميع الآن معلنا موت الفن على طول الغرب المأزوم وعرضه ؟

كيف يمكن أن نحدد موقفنا من أكثر الاتجاهات جدة في الفن المعاصر : الفن الشعبي ـ الفن المضاد . الفن المفهومي و Bohy art، الفن السوسيولوجي

كيف يمكن التخلص من النفي المزدوج : نفي الذات والنفي الذى يسلطه الآخر . ان التخلف يطاردنا ، ثم ان هناك بالنسبة لنا نحن المواطنين ـ مسألة القضايا الملحة . ما الجدوى من اثارة مشكل الابداع التشكيلي ، ما دمنا لم نرض بعد الاحتياجات الحيوية ؟معنى هذا أننا ننسى أن مقتضيات الرغبة يمكن أن تتغلب على قضايا الحاجة ، ثم أن ارضاء الضروريات لم يشبع قط الرغبات . وبالنسبة للعالم ، ما هي المساهمات التي يمكن أن تفيده بها لوحات بلد من بلدان العالم الثالث ؟ واذا وضعنا قيمتها الوثائقية التسجيلية جانبا فما هو المفعول الحاسم الذى يمكن أن يكون لها ؟ أما اذا انطلقنا في حكمنا هذا من تمثل التخلف الاقتصادى للتخلف الثقافي (وهو تمثل سريع) أمكننا الاعتقاد بأن هذا المفعول الحاسم منعدم تماما . ان « الموهبة » التي هي امتياز العالم الثالث غير موجودة كذلك . اذ لكل شخص نفس القوة الابداعية ونفس القدرة على استيحاء الاشكال الرمزية المختلفة والفريدة . المهم هو النفاذ الى منطقة هذا الموضع السرى حيث تطعم القوى الرئيسية كل تطور » .

ورغم ذلك ، ألا يكفي لخلق فن حقيقي ، أن يستحوذ أحد الفنانين على شكل من أشكال التعبير الأوروبي التقليدية ! الواقع أن السؤال لا يستهد ف« ما العمل ؟ » هذه الصيغة الشهيرة التي هي اختزالية جدا حسب مصطلح التقليد ، ولكن السؤال يستهدف « من نكون ؟ » التي هي أكثر راديكالية . لنا الحق في أن نتساءل عما يفرق ويخالف بين ابداعنا التشكيلي وبين ابداع البلدان الاخرى . اين يمكن أن نعثر على مغربية هذا الابداع ؟ وعلى كل حال فليس من خلال اشكال ومظاهر السطح التي يتضح أنها مقترضة . ويقع اختيار الرسامين عموما على الشكل التجريدى ـ هذا الشكل الذى يتجاوز الشكل ـ لانهم يعتقدون أن كل تشكيل يعزل الظاهرة المنفردة ، ويحمل داخله حدوده الخاصة . انهم يعون أنفسهم عن طريق نوعية أشكالهم. ويعون من خلال أنفسهم الآخرين والعالم . ان وضوح وصفاء بعض الفنانين شيء واقعي ، ولكن هل التطابق بين النظرية والتطبيق ، تام ؟ يلتجيء بعض

الفنانين أحيانا الى التقاليد العربية الاسلامية ، بعد فوات الآوان لتبرير انتاج معاصر غريب عنها ...

هذا اللجوء الى التفسير بالتقاليد ، لا يمكن أن يقضي على حالة عدم الافضاء الى شيء أو يقضي على برودة وتفاهة النقل عن الفن الغربي ، أو على الدلالات الأولية للهوية الوطنية . ان كل فنان يبحث بالحاح ليصبح مطابقا لذاته ، وألا يكون غير نفسه ، ويرغب في أن يكون عمله صادرا عن سلطته الخاصة « حتى لا يبقى منفيا في عالم العقل » ، ويفرض علينا الصراع الثقافي ـ والتركيبة التي هي في حالة انتظار ـ فنا مصدوعا ومشروخا وتعبيرا مضابقا ومحاصرا بسبب لعبة التعارضات والانقطاعات ، والتراكم ، والاشكال الزوبعية التي تبحث عن توازن متجاوز للشكل . ويتبقى وجوب انتشال الرسم المغربي من خطر مزدوج يحدق به . فمن ناحية هناك خطر التعبير الذى يتقمص دور الأصالة والذى يخفي بشكل سيء مظهره الفولكلورى . ومن الناحية الاخرى خطر رسم ايماني يقلد (ميكانيكيا) « الطليعة الغربية » متذرعا بالعصرية والعالمية .

يفضي بنا هذا الى طرح مشكل الأصالة : مشكلنا العريق والمعاصر جدا . هذه المعضلة لم تفقد ولو قليلا من حدتها . كيف نحقق تركيبة متناسقة من الثقافات دون أن نقبل رغم ذلك الاستلاب ولا التخلي عن الشخصية ؟ لا توجد وصفة اعجازية يمكن أن نقترحها للمسالمة والصلح بين الحاضر والماضي ، اذ يجب ابعاد كل توجيهية .

لا بد من وجود أرضية لكي يمكن وجود انتاج ونقد . ورغم ذلك فان الشرقاوى أسهم بحل أصيل لمشكل تركيبة الفنون المغربية التقليدية ومكتسبات الغرب . وهو حل يلائم فترة محددة . ان رسم الشرقاوى يمثل حدثا تاريخيا يفتح الطريق الى التحرر عن طريق الدليل . الا زال هذا التحرر يحافظ عن مدلوله حتى الآن ؟ ألا نشاهد الآن تكاثر وتقليدوية الدليل الفارغ والتاكيد بواسطة الجنس ؟

ان كل فنان أصيل على شرط أن يكون مخلصا لمقصد أو نية فنية . ورغم ذلك الا يجب أن يوضع مفهوم الاصالة في مستوى أكثر علوا ، كنوع من التحدى للحدود الانسانية ، وأن يضاف بأن كل فن أصيل اما ان يكون مستبقا ((حدسيا) أو أنه ليس فنا ؟

يجب أن نعرف اذا ما كان لا يزال في امكاننا السمو بواسطة الرسم عن قرننا ، وفتح أبواب الامكان للمستقبل ؟

واعتبارا من أن الارغام والضغط المسلط على الفنان من طرف المادة ، وكذلك ضغط القماش تلك البشرة الأخرى ، يصل الى الحد الذى يستحيل على الفنان معه التخلص من اى تاثير من تاثيرات الفن الاوروبي ، وكذلك انطلاقا من التقليص من حرية الحركة والنشاط لديه . الا يمكن له أن يفجر هذا الاطار

ويخرج من « حاقته » المفرغة ؟ ان أى مادة (من مواد العمل) تقيد الفرد وتفرض عليه شروطا ، لقد أحس فريد بلكاهية بذلك جيدا . ولكن الحل يوجد في غير هذا المكان .

يمكن لهذا الوعي الأول الذى هو مسبقا شيء بدهي ـ أن يساهم في ابداع من **آخر** يلائمنا تمام الملاءمة . فن **القطيعة** الذى يمكن أن يفتح الابواب للابداع الحقيقي ، والتعبير الكلي ، وهو وحده يستطيع أن يجعلنا مختلفين مباينين للآخرين .

ان حوار الثقافة يصبح ممكنا أكثر وبشكل افضل وأخصب اذا ما كانت كل ثقافة واعية بأصولها وحاجتها الى الآخرين من أجل تكاملية متبادلة .

نقله الى العربية : **محمد البكرى**

مجلة الدراسات العربية والاسلامية

لوحدة التعليم والبحث في لغات الهند والشرق وافريقيا الشمالية

سكرتير التحرير عبد الرحمن ايوب
توجه المراسلات والكتب والمنشورات والمقالات الى

CAHIERS D'ETUDES ARABES ET ISLAMIQUES
13, rue de Santeuil - Paris 5e - France